صفحة من الادب العالمي

التوراة مستوحى الكتاب

ومقامها في ادب الغرب

ينزع كتّاب العربية في نهضتهم الحديثة الى قراءة التليد من نتاج ادمغة الغربيين واقتباس ما يرونهُ حسناً وملائماً البيئة التي يعيشون فيها ، ويقصرون قراءتهم الادب العربيّ على مؤلفات الجاحظ وابن خلدون وابن عبدربه والاصبهاني والمتنبي والبحتري والفرزدق وجرير وغيرهم ، كأنّ في مضمون هذه المؤلفات غذاءً كافياً لقرائحهم وكأنّ قصارى ما يرغبون فيه تقوية لغتهم بالمترادفات ، فالاديب إذاً من قدّر لهُ ان يكتب كتابة صحيحة مزخرفة بألوانٍ من الكلام العالي ، والشاعر من استطاع أن يجيد رميَ القافية ، والفيلسوف من أدخل الى لغته فلسفة الغير

لا تستغرب هزال المادّة في نتاج معظم كتاب اليوم الذين لا طاقة لهم على الدرس والمطالعة لتغذية افكارهم ، فهم يقرأون ساعتين ويكتبون خمس ساعات او ثماني ، وجلّ ما يكتبون وجيزُ اقوال قالها عصرهم نفسهُ مائة مرّة من قبلهم

ترى ادباء الغرب يحيطون علماً بالكثير ممّا ولّدتهُ مخيّلات الاقدمين من اليونان ، الى العبرانيين ، الى اللاتين ، الى الفرس والعرب ، وترى في ثقافتهم آثاراً من تلك الثقافات مطبوعة بطابع نفوسهم الخاصّ ، ففي « أساطير الدهور » لثيكتور هيغو عرفٌ طيّب من التوراة والالياذة ، وفي « الفردوس المفقود » لملتون وحيٌ مستمدٌ من سفر التكوين ، وفي قصيدة لامرتين « سقوط ملاك » المتضمنة اثني عشر الفاً من الابيات وثبات متأثرة ببعض فصول تثنية الاشتراع وسفر الملوك الثالث وبعض فصول سفر التكوين ، وفي مطلع قصيدة « فوست » لغوته شبهٌ قريب بمطلع سفر أيوب

أما ادباء العرب في هذه الايام فلا نرى في منتوجات معظمهم إلاّ آثاراً غضّة من منتوج الادب الغربيّ الحديث لا تتناول شيئاً من حضارتهم إذ لا يعرفون أن يطبعوها بطابع خاصّ بل يرسلونها على تصرها في شكل مشوّه دميم ، ثم هم يكتفون من الادب القديم بقراءة دواوين سلفائهم وأقاصيصهم لاعتقادهم أن في هذه الكتب ما يتغنّى به الاديب عن سواه

لا سبيلَ لنا أن ننكر أن الادب العربي لم يبلغ في عصر من عصوره ، منذ فجره الى اليوم ، ما بلغه الادب اليوناني واللاتيني من الرقي ، وقد لا نخطىء اذا قلنا إنهُ لم يرتفع في شيء الى مستوى الادب العبرانيّ ربيب الفلاسفة وأنبياء التوراة ، ففيمَ يشحُ الادباء والمتأدبون في البلاد العربية عن تلك الذخائر الأدبية المدفونة في مطاوي كتب اليونان والرومان والعبرانيين ، وهي على ثقة الدهور أصدقُ أدب أخرجته أدمغة البشر حتى اليوم؟

أية فلسفة من فلسفات الناس تضاهي في صدقها وعمقها فلسفة ابن سيراخ ، وأية شاعرية تضاهي في جمالها وروعتها شاعرية سليمان في نشيد الانشاد وشاعرية أيوب في سفره ، وأية شرائع من شرائع البشر أثبت وأسمى من الشرائع الانسانية الجميلة في بعض اسفار تثنية الاشتراع؟

اسمع هذه الشرائع : « إذا حصدتَ حصادك في حقلك فنسيتَ حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها إنها للغريب واليتيم والارملة تكون . واذا خبطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان إنهُ للغريب واليتيم والارملة يكون . واذا قطفتَ كرمك فلا تراجع ما بقي منهُ إنهُ للغريب واليتيم والارملة يكون » . فهذه الشرائع السامية قد اوحت الى لامرتين أجمل مقطع في قصيدته الخالدة « سقوط ملاك » ، فاسمعهُ يقول بلسان النبيّ الشيخ : « دعوا خبزكم على عتبة بيتكم للجائعين ، واتركوا بعض ثمار على غصونها لمابري الطرق »

Votre pain
Restera sur le seuil pour quiconque aura faim.
Vous laisserez toujours quelques fruits sur la branche
Pour que le voyageur vers ses lèvres la penche.

وتكاد رائعة لامرتين هذه التي قال عنها ڤيكتور هيغو إنها رائعة روائع العصر تمتزج جميع فقراتها بأسفار التوراة . اما فكرة القصيدة فقد استوحاها لامرتين من الآيتين الاوليين من الفصل السادس من سفر التكوين وهما : « (١) ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الارض وولد لهم بنات (٢) رأى بنو الله بنات الناس إنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا »

كان الشاعر الانكليزي توماس مور قد نشر في العام ١٨٢٠ قصيدة رمزية في « غرام الملائكة » نبّهت الشاعر الفرنسي الفرد ده فيني الى قراءة التوراة فاذا به يطلع على الادب بقصيدته الخالدة « إيواء أو أخت الملائكة » التي ترمز الى انتصار الشرّ على الخير

استوحى الفرد ده فيني قصيدتهُ هذه من الآية (١٣) من الفصل الثالث من سفر التكوين وهي : « فقال الربّ الاله للمرأة ماذا فعلت . فقالت المرأة الحية أغوتني فأكلت » . ومن الآية (٦) من الفصل السادس من سفر التكوين وهي : « فندم الربُّ انهُ عمل الانسان على الارض وتأسف في قلبه »

قال ده فيني في مقطع « الطوفان » من قصيدته هذه : « كانت الارض ضاحكة وفي نضارتها الاولى ، وكان كلّ شيء على الارض لا يزال طاهراً نقيّاً ، إلاّ ان الانسان كان شرّيراً ! فتأسف الله في قلبه وحوّل نظره عنه » . وجاء في الآية (٥) من الفصل السادس من سفر التكوين : « ورأى الربّ ان شرّ الناس قد كثر على الارض وانّ كلّ تصوّر أفكار قلوبهم إنما هو شرّ في جميع الايام » . وفي الآية (٧) من الفصل نفسه « فقال الربّ أمحو الانسان الذي خلقت عن وجه الارض الانسان مع البهائم والدبّابات وطير السماء لاني ندمت على خلقي لهم »

وقال ده فيني في قصيدته : « أرى الحمامة في الجلّد تحمل غصناً » . وجاء في الآية (١١) من الفصل الثامن من سفر التكوين « فعادت اليه الحمامة وقت العشاء وفي فمها ورقة زيتون خضراء فعلم نوحٌ ان المياه قد جفّت عن الارض » . وقال في ختام هذه القصيدة : « وظهر قوس قزح في السماء إذ انتهى كل شيء » . وجاء في الآيتين (١٢ — ١٣) من الفصل التاسع من سفر التكوين « وقال الله علامة العهد الذي انا جاعله بيني وبينكم وبين كل ذي نفس حية معكم مدى اجيال الدهر . تلك قوسي جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الارض » . وقال الشاعر الفرنسي في المقطع الاخير من قصيدته هذه : « كزنبقة لاطمها الهواء فرّكت انداءها » . كأنهُ تذكّر عندئذٍ موت اوريال في النشيد التاسع من قصيدة ترجيل (الاناثيد) إذ جاء ما يلي : « وسقط ميتاً نضر الدم جسده الجميل — رائحة الطيبة — والنوى رأسه المثقل على كتفه كزهرة جميلة قطعتها شفرة المحراث فذبلت على الارض وماتت ، أو كاعشاب نهكتها العواصف فحنت رأسها المثقلة بالامطار »

***

قلنا ان معظم نوابغ الكتبة في الغرب قد استوحوا مواضيعهم من اليونان والرومان ومن التوراة بنوع خاص ، فملتون ، احد شعراء الانكليز العظام ، استلهم ملحمتهُ الخالدة « الفردوس المفقود » من سفر التكوين ، فالفردوس المفقود قصيدة ذات اثنى عشر نشيداً تتناول سقوط آدم وحوّاء

يُرى سطانائيل في الاناشيد الثلاثة الاولى عاقداً مجمع البالسة للائتمار على العالم الجديد الذي خلقهُ الله والاتفاق على فتحه ، الاّ ان الله يعرف بالخطة الجهنمية هذه فيعلن للملائكة سقوط الانسان وتصح عزيمته على ارسال ابنه لينقذه . ويتبعهُ القارىء في الاناشيد الخمسة التالية الى جنان عدن فيسمع حواء تطمع آدم على حمل اقلها . في تلك الآونة يهبط الملاك رفائيل من السماء ويحذر آدم من نفاخ الروح الشريرة على ان سطانائيل يكون في النشيدين التاسع

والعاشر قد السل الى عدن واستحال الى حية، فيبدأ عندئذ مشهد التجربة وينتصر الشيطان ولكن الانتقام السماوي لا يلبث ان يحول جميع رفاق الروح الشريرة الى حيات فيذهب القنوط عن آدم ويدعو حواء الى ملاشاة غضب السماء بالصلاة

ويرى ابن الله في النشيدين الآخرين ضارعاً الى ابيه لكي يغفر خطيئة الرجلين الاولين فيرضى الله بذلك ، الا انهُ يبعث الملاك ميخائيل ليقول لآدم وحواء انهما سنفيان وان المرض والموت سيلحقان بهما من الآن فصاعداً

لم يقتصر هذا الموضوع العظيم على تاريخ اسرة او شعب بل هو تاريخ الانسانية جمعاء ومنذ مدرجها الى اقصى عهد من عهودها المقبلة، وهو بجملته مستوحى من هذه الآيات في الفصول الاولى من التكوين وهي (١ — ١) في البدء خلق الله السماوات والارض (١ — ٣) وكانت الحية أحيل جميع حيوان البرية الذي صنعه الربُّ الاله فقالت المرأة أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة. (٦ — ٣) ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت بعلها ايضاً معها فأكل (١٤ — ٣) فقال الرب الاله للحية اذ صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية على صدرك تسلكين وتراباً تأكلين طول ايام حياتك (١٩ — ٣) بعرق وجهك تأكل خبزك حتى تعود الى الارض التي اخذت منها لانك تراب والى التراب تعود

ولقد زين ملتون موضوعه هذا بجميع زهرات الشعر القديم ، فاذا هو لا يزال واقفاً على احدى قمم الشعر التي لا يأمل ان يرقى اليها الا القليل من البشر

كان الشاعر الالماني هردر يرى في الاسفار العبرانية شاعرية الهية لا يرى ظلاً منها في الشعر الحديث، في شعر الشعوب المتحضرة، وكان يقول : « لماذا لا نستوحي الثقافة القديمة ونطبع هذه الثقافة بعادات العصر واخلاقه ؟ »

وكان غوته، صديق هردر واحد الادمغة العالية، لا يملُّ قراءة التوراة التي كان يفضلها على جميع ما انتجتهُ المخيلات البشرية، ولقد استوحى فكرة قصيدته « فوست » التي قضى ستين سنة في نظمها والتي لقيت في التاريخ الادبي بتوراة الالمانيين — لقد استوحاها من الاصحاح الثاني من سفر ايوب

جاء في مطلع هذا الاصحاح ما يلي : «(١) وكان ذات يوم ان جاء بنو الله ليمثلوا امام الرب وجاء الشيطان ايضاً في وسطهم ليمثل امام الرب (٢) فقال الرب للشيطان من أين جئت . فأجاب الشيطان الربَّ من الجولان في الارض ومن التمشي فيها . (٣) فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي ايوب لانهُ ليس مثلهُ في الارض رجل كامل ومستقيم

يتقي الله ويحيد عن الشر. والى الآن هو متمسك بكماله وقد هيجتني عليه لا بتلعه بلا سبب (٤) فأجاب الشيطان الرب وقال جلد بجلد وكل ما للانسان يعطيه لاجل نفسه (٥) ولكن ابسط يدك ومُسَّ عظمه ولحمه فانه في وجهك يجدف عليك (٦) فقال الرب للشيطان ها هو في يدك ولكن احفظ نفسه» . فاليك مطلع الفصل الاول من « فوست »

حوار في السماء

السيد والشيطان مفيستوفليس يتراهنان على روح فوست السيد — اتعرف فوست ؟
مفيستوفليس — الحكيم ؟ السيد — اجل ، خادمي
مفيستوفليس — حقًّا انهُ يخدمك بشكل غريب ، فلا شيء يحسب ارضيًّا عند هذا المجنون حتى الطعام والشراب وأرى روحه تطوف في الجوّ دائماً ، تطلب من السماء اجل كواكبها ومن الارض اسمى لذاذاتها . . .
السيد — بل هو يبحث عني في الظلام وقريباً اهديه الى النور . . .
مفيستوفليس — اتراهني على انك ستفقده من بين يديك؟ ولكن دعني اتخير الوسائل التي تمكنني من جذبه الى طرقي
السيد — تستطيع ان تمارس تجاربك فيه مادام حيًّا على الارض، فكل انسان يمشي معرض للضلال
مفيستوفليس — اشكرك. اني ليلذ لي ان يكون لي شأن مع الاحياء ، فأنا كالهر الذي لا يأبه للفئران الميتة
السيد — حسناً ، لقد اذنت لك ، فابعد هذه الروح عن ينبوعها وسر في طريقك اذا قدرت ولكن ستقر بأن رجل الخير يعرف ان يميز طريق الله القويمة ويتبعها
مفيستوفليس — لن يتبعها طويلاً ! سنرى اني اريد ان يأكل التراب بلذة كابنة عمي الافعي
وكلتخ ، كلتخ الشاعر الانكليزي العاتش في يومنا هذا ، كلتخ الذي لم ينشد الاحلام ولا الحب، وقصر شعره على اطراء المال والنظام والبحر والمادة وأنشد جميع العناصر التي تمثل القوة المنظورة في العالم ، كلتخ شاعر الواجب وشاعر « الخدمة » على حدّ قوله قد بنى قصائده « المادية » على اسس متينة هي التوراة

ولكي يتضح لقراء العرب وأدبائهم الذين لم تمهّد لهم سُبُل الوصول الى كتاب العبرانيين او بالاحرى سفر الانسانية اجمع أنّ التوراة اصدق اساس لاي بناء ادبي كان نذكّرهم ان كليوباطرة ، ملكة مصر ، واشدّ رجالات عصرها تمشقاً للعلوم وتسقاً في الآداب قد بلغ بها « الهوس » بالالياذة مبلغاً حدا بها الى تفضيلها على التوراة ، وقد اجمع الكل على ان هذا التفضيل إنما هو مبالغة ظاهرة بيروت الياس ابو شبكة